القرآن كتاب اللّه المحفوظ نصاً والترجمة للمعنى

obeikandl.com

obeikandl.com

القرآن كتاب الله المحفوظ نصاً والترجمة للمعنى

حفظه في الصدور:

نزل القرآن الكريم على محمد ﷺ بلفظه، ولما كان أمياً لم يتعلم القراءة والكتابة ، فقد اهتم بحفظه واستظهاره ، ومما دعا إلى اهتمام الصحابة بحفظه عن ظهر قلب أن أدوات الكتابة لم تكن ميسورة لديهم في ذلك العهد ، ومن هنا كان التعويل على الحفظ في الصدور يفوق التعويل على الحفظ بين السطور ، فكان الرسول ﷺ يحفظه ويستظهره ، ثم يقرؤه على الناس على مكث ليحفظوه ويستظهروه ، وهي ضرورة حتمتها أنه نبي أمي ، بعثه الله فى الأميين ، يقول الله تعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ [الجمعة : ٢]

فالمعروف أن الأمي يعول على حافظته فيما يهمه أمره ، ويعنيه استحضاره وجمعه ، خصوصاً إذا أوتى من قوة الحفظ والاستظهار بما ييسر له هذا الجمع والاستحضار . وكذلك كان العرب على عهد نزول القرآن ، فكان العربي يتمتع بسرعة الحفظ ، وقوة الذاكرة ، فوعت ذاكرته الأنساب والأيام ، وحفظ الأشعار ، فلم يكن من الصعب عليه أن يحفظ القرآن الذي احتل مكانة في قلبه تفوق ما كان يحفظه في الجاهلية من أشعار وأنساب، فحفظه ووعاه وحافظ عليه من النسيان ، لأنه ملك عليه قلبه ومشاعره ، وسيطر على أحاسيسه ووجدانه .

وعليه فقد كان رسول الله ﷺ جامع القرآن في صدره ، فكان سيد الحفاظ ، ومرجع المسلمين في كل ما يعنيهم من أمر القرآن ، وكان ﷺ يقرؤه على الناس على مكث كماأمره

ربه ، فكان يتلوه في الليل والنهار ، ويقرؤه في الصلاة ، أضف إلى ذلك أن جبريل عليه السلام كان يعارضه إياه (أي يسمعه له) في كل عام مرة ، وعارضه إياه في العام الأخير مرتين . قالت عائشة وفاطمة رضي الله عنهما : " سمعنا رسول الله ﷺ يقول: **إن جبريل كان يعارضني القرآن في كل سنة مرة ، وإنه عارضني العام مرتين ولا أراه إلا حضر أجلي**" .

وأما الصحابة رضوان الله عليهم ، فقد كان كتاب الله في المحل الأول من عنايتهم : يتنافسون في استظهاره ، ويتسابقون إلى مدارسته وفهمه ، ويتفاضلون فيها بينهم على مقدار ما يحفظون منه ، وربما كانت قرة عين السيدة منهم أن يكون مهرها في زواجها سورة من القرآن الكريم يعلمها إياها زوجها ، وكانوا يؤثرون قراءة القرآن ليلاً على راحة النوم ، فكان الذي يمر ببيوت الصحابة في غسق الدجى يسمع فيها دوياً كدوى النحل بالقرآن ، وكان الرسول ﷺ يذكى فيهم روح هذه العناية بالتنزيل ، يبلغهم ما أنزل عليه من ربه ، ويبعث إلى من كان بعيد الدار منهم من يعلمهم ويقرؤهم ، فبعث مصعب بن عمير ، وابن أم مكتوم إلى أهل المدينة قبل هجرته ، يعلمانهم الإسلام ، ويقرئانهم القرآن ، كما أرسل معاذ بن جبل إلى مكة بعد هجرته للتحفيظ والإقراء . قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه كان الرجل إذا هاجر (أي من مكة إلى المدينة) دفعه النبي ﷺ إلى رجل منا يعلمه القرآن ، وكان يسمع لمسجد رسول الله ﷺ ضجة بتلاوة القرآن ، حتى أمر رسول الله ﷺ أن يخفضوا أصواتهم ".

ومن هنا كان حفاظ القرآن الكريم في حياة رسول الله ﷺ جماً غفيراً ، منهم الأربعة الخلفاء : (أبو بكر وعمر وعثمان وعلى) ، ومنهم طلحة ، وسعد ابن أبي وقاص ، وابن مسعود ، وحذيفة ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وأبو هريرة ، وابن عمر ، وابن عباس ، وعمرو بن العاص ، وابنه عبد الله ، و معاوية ، وابن الزبير ، وغيرهم كثيرون لا يتسع المقام هنا لذكرهم ، فمن أراد معرفتهم فليرجع إلى الكتب التي تحدثت عن جمع القرآن وحفظه . وبالإضافة إلى الذين حفظوه كله ، فقد كان هناك أناس حفظوا أجزاء منه ، وكانوا من

الكثرة بحيث أن الباحث يستطيع أن يتبين أن حافظي القرآن الكريم كانوا أعداداً كبيرة ، يدل على ذلك ما قال القرطبي من أن من بين القتلى في معركة واحدة (وهي معركة اليمامة) سبعين حافظاً للقرآن ، كما قتل أيضاً على عهد رسول الله ﷺ مثل هذا العدد في بئر معونة ، مما يدل على أن من كان يحفظ القرآن الكريم من الصحابة عدداً كبيراً جداً .

ثم إن ما ذكرناه في هذا المقام لا يتجاوز دائرة الصحابة الذين جمعت ذاكرتهم كتاب الله في حياة الرسول الله ﷺ ، أما بعد وفاته عليه الصلاة والسلام ، فقد أتم حفظ القرآن آلاف مؤلفة من الصحابة ، واشتهر بإقراء القرآن منهم سبعة : عثمان ، وعلى ، وأبي بن كعب ، وأبي الدرداء ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن مسعود ، وأبو موسى الأشعري كلهم جمعوا القرآن حفظاً في ذاكرتهم ، وأقرءوه للناس ، وعلموا المسلمين قراءته الصحيحة ، فصارت ذلك سنة في المجتمع الإسلامي حتى اليوم ، فلم يخل عصر من حفاظ للقرآن ، ولم يكن عددهم قليلاً ، بل وصلوا إلى آلاف مؤلفة ، بل لا أغالي إذا قلت : إن من يحفظ القرآن اليوم يعدون بالملايين ، ومنهم من لا تكون العربية لغته ، ولكنه يحفظه عن ظهر قلب بألفاظه العربية ، وما ذاك إلا لأنه يعتبر حفظه قربى يتقرب بها إلى الله ، وأعتقد أنه لا يوجد كتاب مقدس حظي من أتباعه بمثل ما حظي به القرآن الكريم في مجال حفظه في الذاكرة ، وهو عامل مهم جداً في مجال المحافظة عليه من الضياع أو التبديل والتحريف .

تدوينه:

حفظ القرآن الكريم في ذاكرة الرسول ﷺ ، وفي ذاكرة أصحابه ، لأنه كان أمياً ، وكانت الأمية متفشية في أصحابه أيضاً ، ولكن لم تصرفهم عنايتهم بحفظه عن عنايتهم بكتابته ونقشه ، غير أن ذلك كان بمقدار ما سمحت به وسائل الكتابة وأدواتها في عصرهم .

فقد اتخذ الرسول ﷺ كُتّاباً للوحي ، كلما نزل شيء من القرآن أمرهم بكتابته مبالغة في تسجيله وتقييده ، وزيادة في التوثق والضبط والاحتياط في كتاب الله تعالى ، حتى تُظاهِر

الكتابة الحفظ ، ويُعَاضِد النقش اللفظ ، وكان هؤلاء الكتاب من خيرة الصحابة فيهم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، ومعاوية ، وأبي ابن كعب ، وزيد بن ثابت وغيرهم . وكان النبي ﷺ يدلهم على موضع المكتوب من سورته ، فيكتبونه فيما يسهل عليهم من العُسُب (وهو جريد النخل يكشفون الخوص ويكتبون في الطرف العريض ، واللخاف (وهي الحجارة الرقيقة) ، والرقاع (وهي من جلد أو من ورق) ، وقطع الأدم (والأدم : الجلد) ، وعظام الأكتاف والأضلاع .

ثم يوضع المكتوب في بيت رسول ﷺ . وهكذا انقضى العهد النبوي والقرآن مجموع على هذا النمط ، بيد أنه لم يكتب في صحف ، ولا مصاحف ، أى لم يجمع في مجلد واحد، بل كتب منثوراً بين الرقاع والعظام ونحوها .

روى عن ابن عباس أنه قال : كان رسول ﷺ إذا نزلت عليه سورة دعا بعض من يكتب فقال : " **ضعوا هذه الآية في الموضع الذي يذكر فيها كذا وكذا** " ، وعن زيد بن ثابت قال: " كنا عند الرسول ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع"، وكان هذا التأليف عبارة عن ترتيب الآيات حسب إرشاد النبي ﷺ ، وكان هذا الترتيب بتوقيف من جبريل عليه السلام. فقد ورد أن جبريل عليه السلام كان يقول : ضعوا كذا في موضع كذا ، ولا ريب أن جبريل كان لا يصدر في ذلك إلا عن أمر الله ﷻ .

أما الصحابة – رضوان الله عليهم – فقد كان منهم من يكتبون القرآن ، ولكن فيما تيسر لهم من قرطاس أو كتف ، أو عظم ، أو نحو ذلك بالمقدار الذي يبلغ الواحد عن رسول الله ﷺ ولم يلتزموا توالى السور وترتيبها ، وذلك لأن أحدهم كان إذا حفظ سورة أنزلت على رسول الله ﷺ أو كتبها ، ثم خرج في سرية – مثلاً – فنزلت في وقت غيابه سورة ، فإنه كان إذا رجع يأخذ في حفظ ما يترل بعد رجوعه وكتابته ، ثم يستدرك ما كان قد فاته في غيابه فيجمعه ، ويتتبعه على حسب ما يسهل له ، فيقع فيما يكتبه تقديم وتأخير بسبب ذلك ، وقد كان من الصحابة من يعتمد على حفظه فلا يكتب، جرياً على عادة العرب في حفظ أنسابها واستظهار مفاخرها وأشعارها من غير كتابة .

وصفوة القول أن القرآن كان مكتوباً كله على عهد رسول الله ﷺ ، ولكنه لم يكن مجموعاً في مصحف ، أى في مجلد واحد ، وذلك لعدة أسباب منها :

أولاً : أنه لم يوجد من دواعي جمعه في مجلد واحد مثل ما وجد في عهد أبي بكر ، مما جعله يقرر جمعه في مصحف واحد ، فالمسلمون وقتئذ (أى في عهد الرسول ﷺ) بخير ، والقراء كثيرون ، والإسلام لم تتسع رقعة انتشاره ، والفتنة مأمونة ، والتعويل لا يزال على الحفظ أكثر من الكتابة ، وأدوات الكتابة غير ميسورة ، وعناية الرسول ﷺ باستظهاره تفوق الوصف ، وتوفى على الغاية .

ثانيا: إن ترتيب الآيات والسور ليس على ترتيب النزول ، أى أن نزوله كان على حسب الأحداث والأسباب ، ولم يكن ذلك موافقاً لترتيب السور ، فلو جمع آنذاك في مجلد واحد لاقتضى ذلك كثرة التبديل في ترتيب المجلد والتغير فيه . وقريب من هذا ما يحدث للمؤلفين عند كتابتهم للكتب ، فإنهم لا يجلدون ما يكتب في مجلد واحد إلا بعد الانتهاء منه ، لأن الأفكار لا تأتي مرتبة مرة واحدة ، فكذلك الوحى الذي نزل على محمد ﷺ ، فقد كان ينزل حسب الحوادث والملابسات ، وترتيبها مغاير للترتيب الذي أراده الله للقرآن الكريم ، فاقتضى ذلك أن يؤجل جمعه في مصحف واحد حتى يتم نزوله كله .

فلما استقر الأمر بختام التنزيل ووفاة الرسول ﷺ ، وتقرر الترتيب ، ووجد من الدواعى ما يقتضي نسخه في مصحف أو مصاحف ، وفق الله الخلفاء الراشدين ، فقاموا بهذا الواجب حفظاً للقرآن ، وحياطة لأصل التشريع الأول مصداقا لقول الله تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: 9] .

جمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر :

لما توفى رسول الله ﷺ تولى الخلافة أبو بكر ﷺ ، فواجهته في بدء خلافته أحداث شداد ، كان من أهمها معركة اليمامة ، فقد دارت الحرب بين المسلمين وأهل الردة من أتباع مسيلمة الكذاب في السنة الثانية عشرة من الهجرة ، فكانت معركة حامية الوطيس ، استشهد فيها كثير من قراء الصحابة وحفظتهم للقرآن عددهم سبعين قارئاً ، فأثار فقدان هذا العدد الكبير من الحفاظ اهتمام المسلمين بجمع القرآن وحفظه في مصحف (أى في مجلد واحد) حتى لا يضيع بضياع حفاظه .

فذهب عمر إلى أبي بكر ، واقترح عليه أن يجمع القرآن ، خشية الضياع بموت الحفاظ وقتل القراء ، فتردد أبو بكر أول الأمر ، لأنه كان من الملتزمين بما فعله رسول الله ﷺ ، فلم يرد أن يقدم على أمر لم يفعله رسول الله ، مخافة أن يجره التجديد إلى التبديد، أو يسوقه الإنشاء والاختراع إلى الوقوع في مهاوى الخروج والابتداع .

ولكنه بعد مفاوضة بينه وبين عمر تجلى له وجه المصلحة ، فاقتنع بصواب الفكرة ، فرأى أن الجمع الذي يشير به عمر ما هو إلا وسيلة من أعظم الوسائل النافعة إلى حفظ الكتاب الشريف ، والمحافظة عليه من الضياع والتحريف ، وأنه ليس من محدثات الأمور الخارجة ، ولا من البدع و الإضافات الفاسقة ، بل هو مستمد من القواعد التي وضعها الرسول بتشريع كتابة القرآن ، واتخاذ كتاب للوحى ، وجمع ما كتبوه عنده حتى مات ﷺ .

قال الإمام عبد الله المحاسبي : " كتابة القرآن ليست بمحدثة ، فإنه صلى ﷺ كان يأمر بكتابته ، ولكنه كان مفرقاً في الرقاع والأكتاف والعُسُب ، فإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان مجتمعاً ، وكان ذلك بمنزلة أوراق ، وجدت في بيت رسول الله ﷺ ، فيها القرآن منتشراً ، فجمعها جامع ، وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء" .

بعد أن اقتنع أبو بكر بأهمية جمع القرآن ، اهتم بتنفيذ هذا العمل ، فانتدب له رجلاً من خيرة رجالات الصحابة ، ألا وهو زيد بن ثابت ﷺ ، لأنه اجتمع فيه من المواهب ذات

الأثر في جمع القرآن ما لم يجتمع في غيره من الرجال ؛ إذ كان من حفاظ القرآن ، ومن كتاب الوحي لرسول الله ﷺ ، وشهد العرضة الأخيرة للقرآن في ختام حياته ﷺ ، وكان فوق ذلك معروفاً بخصوبة عقله ، وشدة ورعه ، وعظم أمانته ، وكمال خلقه ، واستقامة دينه .

يروي البخاري أن زيد بن ثابت قال : أرسل إليَّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة (أى عقب استشهاد القراء السبعين في واقعة اليمامة) فإذا عمر بن الخطاب عنده ، قال أبو بكر ﷺ : إن القتل قد استحر (أى اشتد) يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإني أخشى أن يستمر القتل بالقراء بالمواطن ، فيذهب كثير من القراء ، وإني أرى أن نأمر بجمع القرآن . قلت لعمر : كيف نفعل ما لم يفعله رسول الله ﷺ . قال عمر: هذا والله خير ، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر . قال زيد : قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن ، فأجمعه . فو الله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن....فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللخاف وصدور الرجال...فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر".

انتهج زيد في جمع القرآن طريقة دقيقة محكمة ، وضعها له أبو بكر وعمر ، وكان فيها ضمان لحياطة كتاب الله بما يليق من تثبت بالغ ، وحذر دقيق ، وتحريات شاملة ، فلم يكتف بما حفظ في قلبه ، ولا بما كتب بيده ، ولا بما سمع بأذنه ، بل جعل يتتبع ويستقصى آخذا على نفسه أن يعتمد في جمعه على مصدرين اثنين :

أحدهما : ما كتب بين يدي رسول الله ﷺ .

والثاني: ما كان محفوظاً في صدور الرجال ، وبلغ من مبالغته في الحيطة والحذر أنه لم يقبل شيئا من المكتوب ، حتى يشهد شاهدان عدلان أنه كتب بين يدي رسول الله ﷺ .

ومما يجدر الإشارة إليه ، أن جمع القرآن في صحف على هذا النمط ، لم يعرف لأحد قبل أبي بكر ﷺ ، وذلك لا ينافي أن الصحابة كان لهم صحف كتبوا فيها القرآن من قبل ، لكنها لم تظفر بما ظفرت به الصحف المجموعة على عهد أبي بكر من دقة البحث والتحرى ، ومن بلوغها حد التواتر ، ومن إجماع الأمة عليها ، ولذا كانت هي الصورة المعتمدة التي عنى بها المسلمون بالحفظ والتدوين حتى عصرنا الحالي .

جمع القرآن في عهد عثمان :

تحتاج اللغة العربية في ضبط حروفها ، وتصحيح نطقها إلى نقط توضع فوق بعض الحروف لتمييزها عن بعضها ، وإلى تشكيل ليستقيم نطقها ، فلو لم توضع هذه النقط ، ويوضح هذا التشكيل لأمكن نطق بعض الكلمات بصيغ متعدد ، فيختلف معناه لكل صيغة من هذه الصيغ ، ومن هنا جاء اختلاف المسلمين في قراءة القرآن الكريم ، عندما اتسعت الفتوحات في عهد عثمان ﷺ ، وتفرق المسلمون في الأمطار والأقطار ، لأن الخط العربي آنذاك لم يستعمل فيه النقط والتشكيل ، فقرأ الناس الكلمات المتشابهة بقراءات مختلفة ، لأن بعض الكلمات يقرأ رسمها بأكثر من وجه عند تجردها من الشكل والنقط نحو: "فتبينوا" من قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجرات: 6] .

فإنها تصلح أن تقرأ : "فتثبتوا" عند خلوها من النقط والشكل ، وكذلك كلمة "ننشزها" من قوله تعالى :

﴿ أَوْ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ

يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾ [البقرة: 259] .

فإن تجردها من النقط والشكل يجعلها صالحة أن تقرأ : "ننشرها" بالراء .

كذلك كلمة "أف" في قوله تعالى :

﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأنبياء : 67] .

وفي قوله:

﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ ﴾ [الأحقاف : 17] .

وفي قوله:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الإسراء : 23] .

فقد ورد أنها كانت تقرأ بسبعة وثلاثين وجهاً ، فكان كل إقليم يقرأ بقراءة من اشتهر بينهم من الصحابة ، فأهل الشام قرأوا بقراءة أبي بن كعب ، وأهل الكوفة قرءوا بقراءة عبد الله بن مسعود وغيرهم قرأ بقراءة أبي موسى الأشعرى .

فكان الاختلاف بينهم في حروف الأداء ، ووجوه القراءة طريقاً يفتح باب الشقاق والنزاع في قراءة القرآن الكريم ، وكان الاختلاف في الأقطار النائية أشد استفحالاً من النزاع

الذي حدث في الحجاز ، فكان الذين يسمعون اختلاف القراءات من الأمصار المختلفة إذا جمعتهم المجامع ، أو التقوا في ميادين القتال ، يعجبون من اختلاف القراءات ، ويزيد تعجبهم وإنكارهم كلما سمعوا زيادة في اختلاف طرق أداء القرآن الكريم . فأدى بهم هذا الوضع إلى رمي بعضهم بعضاً بالكفر والزندقة ، فتيقظت فتنة كادت تطيح فيها الرؤوس .

فرأى عثمان بن بثاقب فكره ، وصادق نظرته ، أن يتدارك الأمر قبل أن يتسع الخرق على الراقع ، وأن يستأصل الداء قبل أن يعز الدواء ، فجمع أعلام الصحابة وذوى البصر منهم ، وجال الرأى بينه وبينهم في علاج هذه الفتنة ، ووضع حد لذلك الاختلاف ، وحسم مادة هذا النزاع ، فأجمعوا أمرهم على استنساخ مصاحف ترسل إلى الأمصار ، وأن يؤمر الناس بإحراق كل ما عداها ، وألا يعتمدوا سواها ، وبذلك يرأب الصدع ، ويجبر الكسر ، وتعتبر تلك المصاحف العثمانية الرسمية نورهم الهادى في ظلام هذا الاختلاف ، ومصباحهم الكشاف في ليل تلك الفتنة ، وحكمهم العادل في ذلك النزاع و المراء ، وشقاؤه الناجع من مصيبة ذلك الداء .

وبعد أن انفض الاجتماع شرع عثمان في تنفيذ القرار الذي اتخذه المجلس ، وكان ذلك في أواخر سنة أربع وعشرين من الهجرة ، فعهد في نسخ المصاحف إلى أربعة من خيرة الصحابة ، وثقات الحفاظ وهم : زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وأرسل إلى أم المؤمنين حفصة بنت عمر، فبعثت إليه بالصحف التي عندها ، وهي الصحف التي جمع القرآن الكريم فيها على عهد أبي بكر ﷺ ، وأخذت لجنة الأربعة في نسخها . اتبع هؤلاء النساخ في نسخهم القرآن الكريم طريقة علمية دقيقة ، فاللفظ الذي لا تختلف فيه وجوه القراءات كانوا يرسمونه بصورة واحدة لا محالة ، أما الذين تختلف فيه وجوه القراءات ، فإن كان لا يمكن رسمه في الخط محتملاً لتلك الوجوه كلها ، فإنهم يكتبونه برسم يوافق بعض الوجوه في مصحف ، ثم يكتبونه برسم آخر يوافق بعض الوجوه في مصحف آخر . وكانوا يتحاشون أن يكتبوه برسمين في مصحف واحد ، خشية أن يتوهم أن اللفظ نزل مكرراً بالوجهين في قراءة واحدة ، وليس كذلك ، بل هما

قراءتان نزل اللفظ في إحداهما بوجه واحد ، وفي الثانية بوجه آخر من غير تكرار في واحدة منهما .

وكذلك كانوا يتحاشون أن يكتبوا هذا اللفظ في مصحف واحد برسميه : أحدهما في الأصل والآخر في الحاشية ، لئلا يتوهم أن الثاني تصحيح للأول .

أضف إلى ذلك أن كتابة أحدهما في الأصل والآخر في الحاشية دون العكس تحكم ، أو ترجيح بلا مرجح ، وذلك نحو كلمة "وصي" "بالتضغيف" و"أوصى" بالهمز ففيها القراءتان .

أما اللفظ الذي تختلف فيه القراءات ، ويدل عليه الرسم بصورة واحدة تحتمل هذا الاختلاف ، ويساعدهم عليه ترك الإعجام والشكل نحو "فتبينوا" و"ننشزها" كما بينا ، فتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين شبيهة بدلالة المشترك اللفظي على كلا المعنيين المنقولين . والذي دعا الصحابة إلى انتهاج هذه الخطة في رسم المصاحف وكتابتها ، أنهم تلقوا القرآن عن رسول الله ﷺ بجميع وجوه قراءاته ، وبكافة حروفه التي نزل عليها ، فكانت هذه الطريقة أدنى إلى الإحاطة بالقرآن على وجوهه كلها حتى لا يقال : إنهم أسقطوا شيئاً من قراءاته ، أو منعوا أحداً من القراءة بأي حرف شاء ، على حين أنها كلها منقولة نقلاً متواتراً عن النبي ﷺ ، ورسوله الله ﷺ يقول: "فأياً ذلك قرأتم أصبتم فلا تماروا" .

وكان من الدستور الذي وضعه عثمان ﷺ لهم في هذا المجمع أيضاً أنه قال لهؤلاء الثلاثة القرشيين : "إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم"، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق .

دفع اختلاف الناس في قراءة القرآن عثمان بن عفان على اتخاذ قرار بنسخ عدة نسخ من القرآن الكريم ، طبقاً للنسخة التي جمعت في عهد أبي بكر ﷺ وإرسالها إلى الأمصار المختلفة

لتكون المرجع الرئيس للقراءة الصحيحة للقرآن الكريم ، وفي ذلك يرى البخاري في صحيحه بسنده عن ابن شهاب : " أن أنس بن مالك حدثه أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وكان يغازى أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة ، فقال حذيفة لعثمان : يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ، ثم نردها إليك ، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان ، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله ابن الزبير ، و سعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت (لأن لهجته لم تكن قرشية ، بخلاف الثلاثة فهم كانوا قرشيين) في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم ففعلوا ، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق .

بعد أن أتم عثمان نسخ المصاحف بالصورة التي بيناها ، عمل علي إرسالها وإنفاذها إلي الأقطار ، وأمر أن يحرق كل ما عداها مما يخالفها ، سواء أكانت صحفاً أم مصاحف ، وذلك ليقطع عرق النزاع من ناحية ، أو ليحمل المسلمين على الجادة في كتاب الله من ناحية أخرى ، فلا يأخذوا إلا بتلك المصاحف التي توافر فيها من المزايا ما لم يتوافر في غيرها .

وهذه المزايا هي:

- الاقتصار على ما ثبت بالتواتر دون ما كانت روايته آحاداً .
- ترتيب السور والآيات على الوجه المعروف الآن ، بخلاف التي جمعت في عهد أبي بكر فقد كانت مرتبة الآيات دون السور .
- كتابتها بطريقة كانت تجمع وجوه القراءات المختلفة والأحرف التي نزل عليها القرآن كما شرحنا فيما سبق من عدم إعجامها وشكلها ، ومن توزيع وجوه القراءات على المصاحف إذا لم يحتملها الرسم الواحد .

- تجريدها من كل ما ليس قرآنا ، كالذي يكتبه بعض الصحابة في مصاحفهم الخاصة شرحاً لمعنى ، أو توضيحاً لمفهوم غامض على بعض الناس .

عندما أمر عثمان بحرق جميع المصاحف التي في أيديهم والاعتماد على هذه النسخة ، امتثلوا لهذا الأمر واجتمعوا جميعاً على المصاحف العثمانية ، حتى عبد الله بن مسعود الذي نقل عنه أنه أنكر أولاً مصاحف عثمان ، وأنه أبى أن يحرق مصحفه ، رجع وعاد إلى حظيرة الجماعة ، حين ظهر له مزايا تلك المصاحف العثمانية ، واجتماع الأمة عليها ، وتوحيد الكلمة بها.

نستطيع مما سبق أن نفرق بين مرات جمع القرآن في عهوده الثلاثة. عهد النبي ﷺ ، وعهد أبي بكر ، وعهد عثمان رضي الله عنهما .

فالجمع في عهد النبي ﷺ كان عبارة عن كتابة الآيات وترتيبها ووضعها في مكانها الخاص من سورها ، ولكن مع بعثرة الكتابة وتفرقها بين عُسُب وعظام ، وحجارة ، ورقاع ، ونحو ذلك حسبما تتيسر أدوات الكتابة ، وكان الغرض من هذا الجمع زيادة التوثق للقرآن ، وإن كان التعويل أيامئذ كان على الحفظ والاستظهار .

أما الجمع في عهد أبي بكر رضي الله عنه ﷺ ، فقد كان عبارة عن نقل القرآن وكتابته في صحف مرتب الآيات أيضاً ، مستوثقاً له بالتواتر والإجماع ، وكان الغرض منه تسجيل القرآن ، وتقييده بالكتابة مجموعاً مرتباً ، خشية ذهاب شيء منه بموت حملته وحفاظه .

و أما الجمع فى عهد عثمان ﷺ ، فقد كان عبارة عن نقل ما في تلك الصحف في مصحف واحد إمام ، و استنساخ مصاحف منه ترسل إلي الآفاق الإسلامية ، ملاحظاً فيه تلك المزايا التي بيناها مع ترتيب سوره و آياته جميعاً . و كان الغرض منه إطفاء الفتنة التي اشتعلت بين المسلمين حين اختلفوا في قراءة القرآن ، و جمع شملهم علي ماتواتر من طرق القراءات ،كي يحفظ كتاب الله من أن تدخله قراءات لم ترد عن رسول الله ﷺ ، و بذلك

الجمع حفظ القرآن على طرق القراءات التي وردت عن رسول الله ، فسلم بذلك من التغيير و التبديل ، و كان ذلك طبقاً لما ورد من قوله تعالى :

﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يونس: ٦٤]

تواتر رواية القرآن كتابة و حفظا :

وردت الأخبار المتواترة أن عدد النسخ التي كتبت كانت ستة ، فقد قال صاحب زاد القراء: لما جمع عثمان القرآن في مصحف سماه الإمام ، و نسخ منه مصاحف ، فأنفذ منها مصحفاً إلى الكوفة ، ومصحفاً إلى البصرة ، مصحفاً إلى الشام ، وحبس مصحفاً بالمدينة .

ومما يجد الإشارة إليه أن الاعتماد في نقل القرآن : كان — و لا يزال — على التلقى من صدور الرجال، ثقة عن ثقة، وإمام إلى النبي ﷺ ، لذلك اختار عثمان حفاظاً يثق بهم ، وأرسلهم إلى الأقطار الإسلامية ، واعتبر هذه المصاحف التي نسخها ، وبعثها إلي تلك الأقطار أصولاً ثواني مبالغة في الأمر ، و توثيقاً للقرآن ، ولجمع المسلمين على ما تواتر من وجوه القراءات ، فكان يرسل إلى كل إقليم مصحفه مع من يوافق قراءته ، فقد روى أنه أمر زيد بن ثابت أن يقرئ بالمدنى ، و بعث عبد الله بن السائب مع المكى ، و المغيرة بن شهاب مع الشامى ، و أبا عبد الرحمن السلمى مع الكوفى ، و عامر بن عبد القيس مع البصرى .

ثم قرأ التابعون عن هؤلاء الصحابة ، فقرأ أهل كل مصر بما في مصحفهم تلقياً عن الصحابة الذين تلقوه من فم النبي ﷺ ، ثم تفرغ قوم للقراءة والأخذ والضبط ، حتى صاروا فى هذا الباب أئمة يرحل إليهم ، يؤخذ عنهم ، وأجمع أهل بلدهم على تلقى قراءتهم ، واعتماد روايتهم ، ومن هنا نسبت القراءة إليهم ، كما أجمعت الأمة على مافى المصاحف ، فتعهدوها بالرعاية بجانب تلقيهم القراءة عن القراء .

وظلت الأجيال المتعاقبة يتعلمون طريقة قراءة القرآن جيلاً عن جيل ، كما يتعهدون النص المكتوب بالرعاية والحفظ ، فحافظوا على النص الذي كتب في عهد عثمان ، غاية الأمر أن هذا النص لم يكن منقوطاً ولا مشكولاً . وبقى كذلك حتى اتسعت الفتوحات الإسلامية ، فاختلط اللسان العربي بالعجمي ، وعجز بعض المسلمين عن قراءة النص القرآني غير المنقوط قراءة صحيحة ، فاضطر المسلمون إلى نقط المصحف وتشكيله للمحافظة على أداء القرآن كما رسم ، وخوفاً من أن يؤدى تجرده من النقط والشكل إلى التغيير في قراءته ، وبذلك ظل النص ثابتاً . وانتقلت طريقة القراءة من جيل إلى جيل عن طريق المشافهة حتى يومنا هذا ، إذ لم يخل عهد من وجود حفظة كانوا يعدون بالآلاف ، بل بعشرات الآلاف في كل قطر ، يحافظون على طريقة نطق الحروف ، ويعلمونها لتلاميذهم ، وبذلك حفظ القرآن الكريم نصاً وقراءة .

أما تعهد المسلمين بالمحافظة على رسمه فقد زادت عدد النسخ التي كانت تنسخ من النسخة الأصيلة . زيادة لا مثيل لها ، إذ عكف كثير من المسلمين على كتابة القرآن ، وذلك بغية نشره على أوسع نطاق ، ويكفى للتدليل على كثرة ما ينسخ من القرآن أن المسلمين رفعوا في معركة صفين أكثر من سبعين نسخة من المصاحف على أسنة الرماح ، حين طلبوا الاحتكام في النزاع إلى كتاب الله ، و لم يكن العدد المرفوع هو كل ما كتب عن النسخة الأصيلة ، مما يدل على انتشار النسخ انتشاراً واسعاً ، رغم ضيق المسافة الزمنية بين كتابته في عهد عثمان وهذه الموقعة .

يتساءل بعض الناس عن مصير نسخة عثمان ، وآخر ما وصلنا عنها هو ما أخبرنا به ابن الجزرى (و كان حجة في قراءة القرآن في القرآن الخامس عشر الميلادي) : أنه رأى في زمانه النسخة التي أرسلها عثمان إلى أهل الشام ، كما رأى النسخة التي أرسلت إلى مصر . أما النسخة المحفوظة الآن في خزانة الآثار بالمسجد الحسيني بالقاهرة فينسبها بعضهم إلى عثمان ﷺ ، بينما يرى آخرون أنها منقولة عن المصحف العثماني مباشرة ، نقلها على بن أبي طالب بخط يده ، وعلى كلٍّ ، فعدم بقاء المصاحف العثمانية لا يزعزع الثقة في النص

الموجود ، لأن معول النقل أساساً كان على التلقي من ثقة عن ثقة ، ومن إمام إلى إمام إلى النبي ﷺ ، والسلسلة متصلة ومتواترة على أكمل وجه في القرآن الكريم حتى يومنا هذا .

زد على ذلك أن المصاحف العثمانية ، نسخ على غرارها الآلاف المؤلفة في كل عصر ومصر مع المحافظة على الرسم العثماني .

فالحقيقة أننا لم نر ولم نسمع في تاريخ البشرية أن كتاباً أحيط بهالة من الإجلال والتقديس ، وبذل في حفظه والمحافظة على رسمه جهود متصلة جيلاً بعد جيل حتى يومنا هذا ، مثل القرآن الكريم ، حتى لقد بلغ الحال بالمسلمين في المحافظة عليه والعناية به درجة ، جعلتهم يبعدونه عن المواطن التي تحط من قدره ، أو تلحق به أي شائبة من شوائب الإهمال ، أو عدم الاحترام فقد أفتى العلماء بكفر من رمى به في قاذورة ، وبحرمة بيعه لكافر ولو ذمياً ، وقالوا بوجوب الطهارة عند لمسه وحمله .

واستحبوا تحسين كتابته وإيضاحه وتحقيق حروفها ، ومما يدل على قمة الاحترام ما قاله النووي : "ويستحب للمسلم أن يقوم للمصحف إذا قدم به عليه لأن القيام يستحب للعلماء والأخيار فالمصحف أولى" .

فهذا الإجلال والتعظيم والتكريم للقرآن الكريم دفع المسلمين إلى بذل كل ما لديهم للمحافظة عليه ورعايته كتابة وحفظاً وتعليماً .

فلا يوجد دين على وجه الأرض حافظ أتباعه على كتابه المقدس مثل ما حافظ المسلمون على القرآن الكريم ، فقد نزل بلغة العرب ، لأنهم أول من خوطبوا به يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [يوسف: 2]

و يقول:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾ [طه : 113] .

ونزوله باللغة العربية أمر طبيعي ، وإلا كان غير منطقي كما قال تعالى :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ (أى أأعجمى وهو منزل على عربى لقوم يتحدثون العربية ؟) قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [فصلت : 44]

أي هادٍ لهم إلى طريق الحق ، وشفاء لهم من الأمراض النفسية ، تعتري الإنسان ، عندما لا يكون له مبدأ قويم في الحياة ، يسير عليه .

فنصه العربي هو تعبير الله الذي أنزله على محمد ﷺ ، وتلاوته نوع من العبادة ، ولذا لا يجوز قراءته بلغة أخرى ، بقصد تأدية هذا النوع من العبادة بتلاوته ، قال بدر الدين الزركشي في كتابه "البرهان في علوم القرآن" : "استقر الإجماع على أنه تجب قراءته على هيئته التي يتعلق بها الأعجاز، لنقص الترجمة عنه ، ولنقص غيره من الألسن عن البيان الذي اختص به دون سائر الألسنة" .

وكان هذا الإجماع ، لأن الترجمة ما هي إلا فهم المترجم للنص ، ولما كان كثيراً من آيات القرآن الكريم تدل على معان متعددة ، فإن المترجم لا يترجم إلا معنى واحد ، وهذا قصور في نقل القرآن إلى اللغات الأخرى . قال القفال : "لا يقدر أحد من التراجم على أن ينقل القرآن إلا شئ من الألسن ، لأن العجم لم تتسع في الكلام اتساع العرب ، ألا ترى أنك لو أردت أن تترجم قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنفال : 58]

لم تستطع أن تأتي بهذه الألفاظ ، التي تؤدي المعنى المقصود من الآية ، إلا ببسط طويل ، وكذلك لو أردت أن تترجم قوله تعالى :

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الكهف : 11]

والمقصود من منع العلماء ترجمة القرآن الكريم ، هو إمعان في المحافظة على نصه بحيث لا يفهم أهل اللغة المترجم إليها أن هذه الترجمة طبق النص الأصلي لأنهم جوزوا ترجمته لشرح التعاليم التي جاءت به ، خاصة بالعمل والعبادة ، قال العلماء : يجوز ترجمته للعمل به ، فإن ذلك جائز للضرورة ، وينبغي أن يقف من ذلك على بيان المحكم منه ، والقريب المعنى بمقدار الضرورة من التوحيد ، وأركان العبادات ، ولا يتعرض لما سوى ذلك ، ويؤمر من أراد الزيادة على ذلك بتعلم اللسان العربي ، وهذا هو الذي يقتضيه الدليل ، فلم يكتب رسول الله ﷺ إلى قيصر إلا بأية واحدة محكمة لمعنى واحد ، وهو التوحيد والتبرى من الشرك .

وعليه فينبغي على من يقرأ ترجمة القرآن الكريم أن يفهم أنها تعبير عن المعنى الذي فهمه المترجم من نص القرآن الكريم ، لا على أنها النص الحرفي ، فإذا أراد معرفة النص الحرفي ، فعليه بتعليم اللغة العربية ، ليقف على أسرار هذا الكتب المقدس ، كما فعل ذلك كثير من المسلمين والباحثين من غير العرب .